

# أفاق العروبة

## مقاربة في «نظرية النظم» بين سيبويه والجرجاني

✽  
وهذان وهذان

اكتسب سيبويه شهرة عظيمة في تاريخ المعرفة الإسلامية بكتابه في النحو، لما اشتمل عليه من قواعد نحوية، أصبحت ضرورية لضبط اللغة العربية والحفاظ على سلامتها، معرفة وأداء.. والحقيقة أن كتاب سيبويه، كان وما زال أخلد كتاب في نحو العربية وصرفها وأصواتها.. إلا أن تصفح بعض ما أنجز حول الكتاب من دراسات وبحوث، يوحي بأن جوهر جهد الرجل لم يفهم، فوقف التقييم لمجهوده عند حدود اعتباره مسجلاً لأصول

✽ كاتب سوري

✽ العمل الفني: الفنان مطيع علي.

الإجهاز على بعض المسلمات، الصريحة والضمنية، التي حكمت المسار النقدي والبلاغي العربي، من نحو أن عبد القادر الجرجاني هو مبتكر نظرية النظم، وأنها من بنات أفكاره، وحتى إذا ما أشير إلى جهود سابقه، كالجاحظ (٢٥٥هـ)، أو القاضي عبد الجبار (٤١٥هـ) فكثيراً ما يغيب رجل عظيم، كان في اعتقادنا، المؤسس الحقيقي لنظرية النظم، والواضع الأول لمفرداتها في صمت: إنه سيبويه عمرو بن عثمان (١٨٠هـ)، إمام النحاة.

#### النظم عند سيبويه:

حقيقة، كان اهتمام سيبويه الأول في الكتاب هو وضع القواعد العلمية النحوية، وليس الوقوف على الأسس الفنية البلاغية، وحتى في إشارات البلاغية المتناثرة في الكتاب، لم يذكرها كقوانين ومصطلحات كما عرفناها بعده. إلا أن نظرية النظم كما اكتملت مع عبد القاهر الجرجاني أو كادت، ساهم فيها سيبويه بقسط وافر، بما ذكره من موضوعات تدخل في صلب ما عرف فيما بعد بعلم المعاني، من حذف وزيادة، وذكر وإضمار، وتقديم وتأخير، واستفهام، وقصر، وفصل ووصل.. هذه المباحث، كما

النحو العربي وقواعده وحسب!.. وبذلك يتم الإجهاز على مضمون أخطر مصطلح يشتغل عليه سيبويه وهو النحو.

والنحو عند سيبويه، كما أريد له، لم يكن مجرد إعراب لأواخر الكلمات وما فيها من رفع، ونصب، وجر، وجزم.. بل كان ينظر إليه في ترابط مع بقية العلوم وخاصة البلاغة، ومن ثم يكتسب النحو روحاً مشعة لها جلالها وقيمتها الفنية والجمالية، وهذا ما سيطور إلى أقصى درجاته التعبيرية مع الإمام عبد القاهر الجرجاني، والذي سيتحول معه النحو إلى وسيلة من وسائل التصوير اللفظي، ومظهراً من مظاهر البراعة البلاغية، لا إعراباً جافاً كما نجد في كتب النحو الخالصة، فمحور سيبويه - الجرجاني إذن، متكامل، ومنسجم يكمل الأول فيه الثاني ومن هنا تأتي مشروعية الورقة في الحديث عن النظم بين سيبويه والجرجاني.

وموضوعنا هذا، باعتباره ورقة، من مهامه المنهجية، على إثارة أسئلة استفزازية أكثر مما يحاول تقديم معلومات، أو يعطي أجوبة تقريرية، ويرمي بما توفره له من قدرة على الحشد والبناء الاستدلالي، إلى

واحتج لها، يجعلنا نخرج بخلاصة تقول: إن «النظم» عنده يعني: «معاني النحو وأحكامه» فالنحو إذا يعد من أهم أسس منهجه وأخطرها، بل وأغمضها في أذهان الكثيرين، حتى صعب تصور ما يقصده عبد القاهر بهذا المصطلح، يقول في المدخل إلى «دلائل الإعجاز» هذا كلام وجيز يطلع به الناظر على أصول النحو جملة، وكل ما به يكون النظم دفعة (٢) هذا هو مسوغ اختيار عنوان «سيبويه والجرجاني: من النحو إلى النظم» فالعلاقة بين النحو والنظم، تصادفنا في عدد كثير من صفحات «دلائل الإعجاز» فقد استفاد عبد القاهر إذن من النحو، وهو من شيوخه، في إرساء قواعد نظريته، واعتبره أصلاً ضرورياً في النظم، بل ويشدد النكير على من يزهد فيه، يقول: «وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتعاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدم، وأشبه بأن يكون صدأً عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه، ذلك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه» (٣).

وممن استفاد منهم الجرجاني، في مجهوده من النحاة سيبويه (٤) فقد أخذ عنه

جاءت في الكتاب شكلت «النصوص الغائبة» أو «المواجهة» للجرجاني وهو منكب على صياغة نظريته.

وإذا كان اهتمام النحاة القدماء منحصراً في أثر العوامل وما يعقبها من حركات الإعراب.. ففي مواضع كثيرة من الكتاب (١) نلمح سيبويه يهتم بالتركيب، والتأليف بين الكلمات والجمل، وصوغ العبارات والحسن والقبح فيها. إن سيبويه إذاً، لا يكتفي بتسجيل قواعد النحو، وإنما يلاحظ ويتأمل، ويقدم تحليلاً رائعاً، يبين دقة حسه بفقته اللغة، وأساليبها وأسرار بلاغتها وتراكيبها.. ويحاول الوقوف عند خواص معانيها. وفي إطار هذه الدراسة المقارنة بين سيبويه والجرجاني سنكتفي بالإشارة إلى بعض الأمثلة التي ساقها كلا العالمين، دليلاً على اهتمامهما المشترك بالنظم، دون أن يعني ذلك أننا استقصينا الأمثلة كلها والأماكن جميعها، أو حتى استوعبنا ذلك أو تمثناه.. وعذرنا ضعفنا وقصورنا.

### سيبويه والجرجاني.. من النحو إلى النظم:

إن تدبر «دلائل الإعجاز» الذي وضع فيه عبد القاهر نظرية النظم، وفصلها



### فكرت تبتيغيه فوافقته

على دمه ومصصره السباعا

وقول آخر:

لن تراها ولو تأملت إلا

ولها في مفارق الرأس طيبا

قال: «إنما نصب هذا لأنه حينما قال:

وافقته وقال: لن تراها، فقد علم الطيب

والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة،

وأنهما قد اشتملا على ما بعدهما في

خصائص التعبير، وما يصلح به الكلام ويفسد، إلا أن براعة الجرجاني تتجلى في استفادته من جهد سيبويه وغيره من النحاة وتطويره، فأسس بذلك مشروعاً جمالياً يستمد عمقه من النحو، سرعان ما سيجهض بفضل النحو عن البلاغة، لتدخل هذه الأخيرة في تعقيدات فلسفية، وأقيسة منطقية، سيفقد النص، بموجبها، قيمه الفنية والجمالية، ويصاب بالجفاف والعقم في زمن الانحدار<sup>(5)</sup>. ورغم أن كتاب سيبويه يتميز، في عمومته، بإيجاز العبارة

وغموض الفكرة، مما يسبب بعض التعب والملل أثناء القراءة، إلا أنه يشتمل على عدد غير قليل من الالتفاتات البلاغية والغنية، ذكر الجرجاني بعضها صراحة منها:

### ظاهرة الحذف:

قال سيبويه في «باب يحذف منه الفعل لكثرة في كلامهم حتى صار بمنزلة «المثل» في قول الشاعر:

وكذا الحذف الخفي، والزيادة في الكلام. ويرى عبد القاهر، على غرار سيبويه، أن افتقار المخاطب إلى التأكيد والتقوية، حينما يكون متردداً في الحكم، أو منكراً له، ويستدعي زيادة واضحة المغزى، ذات غرض بلاغي دقيق.

### التقديم والتأخير بين سيبويه والجرجاني؛

يعتبر سيبويه أول من كشف عن السر البلاغي في التقديم والتأخير، فالنحويون قبله كانوا يقفون عند حدود الوصف الشكلي. المحض لعملية التقديم والتأخير، أما سيبويه فكان يراها طلباً للعناية والاهتمام، وأطال الحديث في التقديم والتأخير في باب ظن وكسي، وإن، وكان والظروف، وكشف عن نكت بلاغية في الموضوع، ظلت معتمد البلاغيين الذين أتوا بعده. يقول: «والتقديم هنا والتأخير، فيما يكون ظرفاً أو يكون اسماً، في العناية والاهتمام، مثله في ما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول، وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير، والإلغاء والاستقرار، عربي جيد، فمن ذلك قوله عز وجل «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، وأهل الجفاء من العرب يقولون: ولم يكن كفواً

المعنى»<sup>(٦)</sup>. إن سيبويه في تناوله للحذف، لا يكتفي بعرضه عرضاً شكلياً محضاً، بل يضيف بأنه فصيح تحدث به الفصحاء من العرب، ويحتوي على أسرار بلاغية، فهم يحذفون مرة إيجازاً، وأخرى تخفيفاً، ويشير أيضاً إلى أن عادة العرب جرت على إلحاق التتوين بالخفيف من الكلمات، وحذفه من الثقيل، لأن التتوين يزيد الكلام ثقلاً، ولا يريدون أن يزيدون ثقلاً على ثقل، والعرب على العموم -حسب سيبويه- تحذف طلباً لخفة اللسان، واتساعاً في الكلام.. فيكون بذلك سيبويه من الرواد الذين مهدوا لتناول الحذف، وبيان مواضعه وأسارته. كما أشار إلى الذكر والإضمار في التعبير الكلامي.

أما الجرجاني فقد عقد فصلاً للحذف في «الدلائل» مسترشداً بأراء سيبويه، مناقشا بعضها، ويقول في الحذف: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة وتجديك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين»<sup>(٧)</sup>. ويفصل عبد القاهر القول في حذف المبتدأ، وحذف الفعل وإضماره، ويمثل لذلك، وكذا حذف الفاعل والمفعول،

حيث يلتقي في الأخير مع سيبويه ويقول: «وإذا اعتبرت ما قدمته من قول صاحب الكتاب (إنما قلت «عبد الله» فنبهته له، ثم بنيت عليه الفعل) وجدته يطابق هذا، وذلك أن التثنية لا يكون إلا على معلوم، كما أن قصر الفعل لا يكون إلا على معلوم، فإذا بدأت بالنكرة فقلت «رجل» وأنت لا تقصد الجنس، وأن تعلم السامع أن الذي أردت بالحديث رجل لا امرأة، كان محال أن تقول (إني قدمته لأنبه المخاطب له)، لأنه يخرج بك إلى أن تقول: إني أردت أن أنبه السامع لشيء لا يعلمه في جملة ولا تفصيل، وذلك مالا يشك في استحالتها، فأعرفه»<sup>(١٠)</sup>.

إن التقديم والتأخير إذن يأتيان عند سيبويه والجرجاني، للعناية والاهتمام، أو للتأكيد والتثنية، وقد يأتيان لغير علة بلاغية، ويكونان سبباً في قبح الكلام، واختلال التركيب، فكثيرة إذن، هي الإشارات البلاغية «الغفل» عند سيبويه، تلقفها الجرجاني، وأعمل فيها ذوقه وحسه، وصاغها في قالب جمالي رفيع. إن ضيق مجال الورقة، لا يسمح بطرق كثير من المجالات البلاغية التي كان لسيبويه سبق والريادة فيها، من نحو خروج الاستفهام عن معناه، والنداء عن

له أحد كأنهم أخروها حيث كانت غير مستقرة»<sup>(٨)</sup>. قد نلاحظ للوهلة الأولى قصور تصور سيبويه لسر التقديم، وهذا ما دفع الجرجاني بالفعل للاستدراك عليه، واستكناه الأسرار البلاغية البعيدة للتقديم، فيكون بذلك جهد الجرجاني تنمة لما ابتدأه سيبويه: جاء في «الدلائل» في فصل «القول في التقديم والتأخير»: واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام، قال صاحب الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم)، ولم يذكر في ذلك مثلاً (..) وقد في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال (إنه قدم للعناية وذكره أهم) من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كانت أهم؟ ولتخيلهم ذلك، قد صغر أمر (التقديم والتأخير) في نفوسهم وهونوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضرباً من التكلف»<sup>(٩)</sup> وبعد هذا التعقيب، ينطلق الجرجاني في تفصيل مواضع التقديم والتأخير، في الاستفهام، والنفي والخبر، ويختم بفصل عن النكرة وتقديمها في الاستفهام، أو الخبر ومعناه،

- ١- النحو عند سيبويه، كما عند الجرجاني، لم يكن مجرد إعراب أو آخر الكلمات.
- ٢- انطلق سيبويه والجرجاني من إطار تصوري واحد، وهو عدم الفصل بين النحو والبلاغة.
- ٣- لم يتعد النحو عند سيبويه والجرجاني، البحث في الجملة وكلماتها.
- ٤- يلتقي كتاب سيبويه ودلائل الإعجاز منهجياً في ضعف الارتباط بين الأجزاء، والتكرار الممل، والخوض، في بعض الأحيان، في الجدل العقلي وبناء الأمثلة المصنوعة.. مما يقلل من جمالية التحليل.

#### خلاصة عامة:

إذا كانت نظرية النظم، قد عرفت اكتمالها مع عبد القاهر الجرجاني، كنظرية جمالية (استيطيقية) متميزة في النقد العربي، فإن سيبويه هو واضع حجرها الأساس، ومبتكرها بدءاً. إلا أن قوة شخصية الجرجاني، وشهرة كتابه «دلائل الإعجاز» غطيا على سيبويه ومجهوده في النظم، ليرتجع إلى الخلف في صمت.

أصله وإفادته الاستغاثة والندبة.. واستعمال الخبر بمعنى الإنشاء والطلب موضع الخبر والعكس، واختصر سيبويه الكلام في القصر بما يفيد، فتحدث عن النفسي والاستثناء والعطف، وذكر الفصل والوصل، ولم يكن حديثه نحويًا جافاً، ولكن بلاغياً مرهفًا، نحس فيه ذوقاً وجمالاً وروعة.. مما سيستفيد منه عبد القاهر أيما استفادة، فيعمقه ويخرجه في صورة أخاذة. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن سيبويه اهتم بالحسن والقبح في التعبير، ففي حديثه عن الفصل، ذكر مواضع يحسن فيها، وأخرى يقبح فيها، فلو قلت: «كان زيد هو منطلقاً، كان قبيحاً»، كان يراعي تأليف الكلام وحسن النظم القائم على توشي معاني النحو، يقول في «باب الاستقامة من الكلام والإحالة»: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب»<sup>(١١)</sup>. إن وضع الألفاظ في غير موضعها دليل عند سيبويه على قبح النظم وفساده، ونجد في مواضع كثيرة من الكتاب حديثاً عن تأليف العبارة، وتركيب الكلام وكلاماً كثيراً له علاقة بالنظم، مما يعسر تعقبه في هذه العجالة، كل هذا يجعلنا نخرج بخلاصات كالآتي:



## الهوامش:

- ١- سيبويه، الكتاب (سيكون تركيزنا على الجزء الأول فقط، لعدم قدرتنا على تتبع كل مباحث الكتاب) انظر الجزء الأول صفحات: ٢٥، ٢٦، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٧٠، ٨٠، ٨١، ٩٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٣٨، ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٥٣، ٣٣٤، ٣٤٣.
- ٢- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، المدخل ص ٣.
- ٣- نفسه ص ٢٨.
- ٤- انظر حضور سيبويه في دلائل الإعجاز في الصفحات: ١٠٧، ١٣١، ١٤٥، ١٤٦.
- ٥- انظر السكاكي. مفتاح العلوم، القسم الثالث: علما المعاني والبيان (ص ١٦١-٤٣٢).
- ٦- سيبويه، الكتاب ج ١، ص ٢٨٤-٢٨٥.
- ٧- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٤٦.
- ٨- سيبويه، الكتاب ج ١، ص ٥٦.
- ٩- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ١٠٧-١٠٨.
- ١٠- نفسه ص ١٤٤.
- ١١- سيبويه الكتاب ج ١، ص ٢٥-٢٦.

